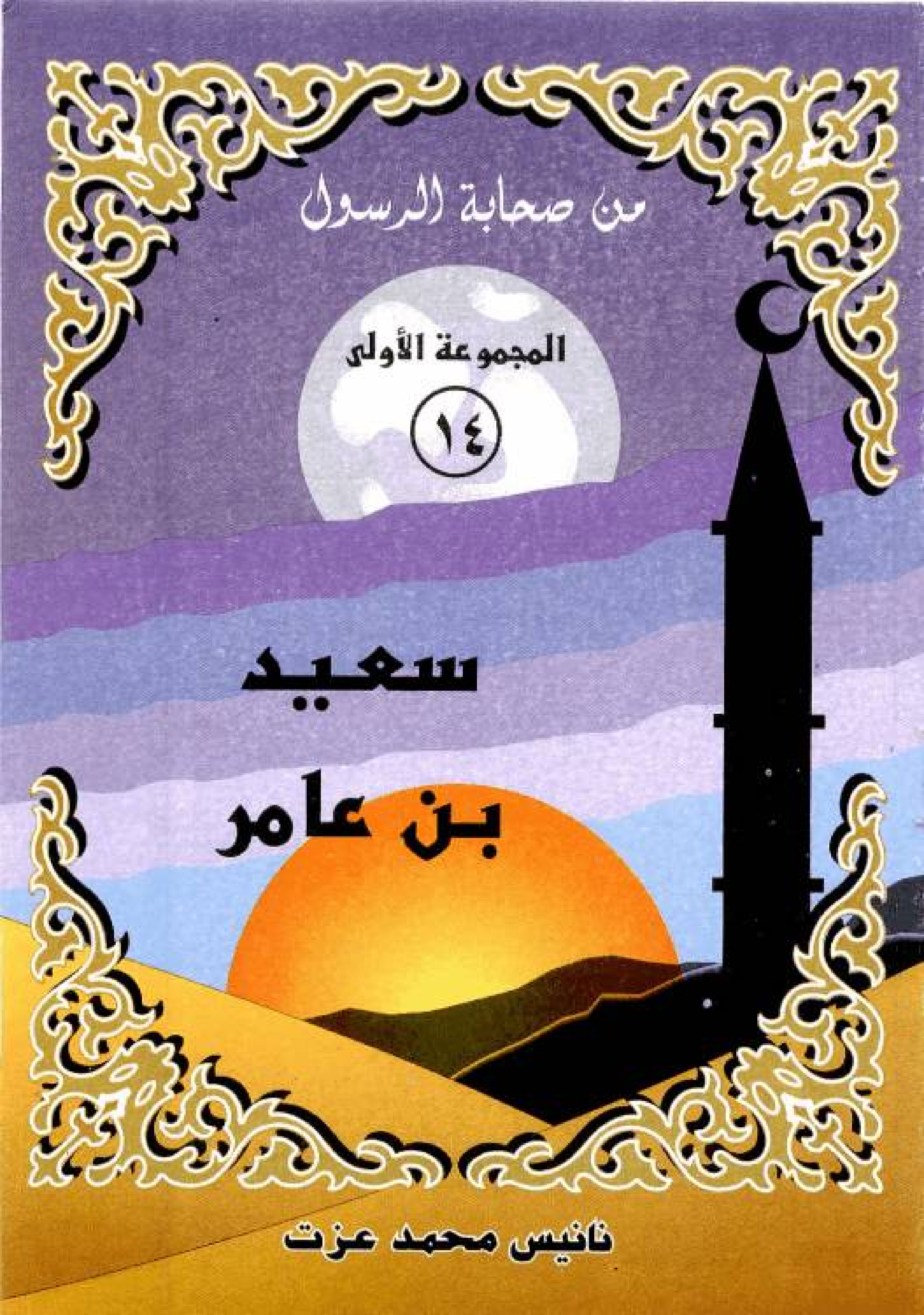

من صحابة الرسول
المجموعة الأولى
١٤
سعيد
بن عامر
نانيس محمد عزت

من صحابة الرسول

المجموعة الأولى ١٤

سعيد بن عامر

بقلم

نانيس محمد عزت

الناشر
مكتبة مصر
سعيد جودة السحار وشركاه
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة
ت: ٥٩٠٨٩٢٠

سعيد بن عامر

زينَةُ وفَـرَحُ طِفلَتـانِ لَطيفَتـانِ تُحبّـانِ اللّعِـب ، كمـا تُحبّانِ النّظافَةَ والنّظام ، فهُما تعتَنِيان بملابسِـهما ، فهى نَظيفَـةٌ دائِمـا ، ولَعِبُهُمـا مُنظّـمٌ مُرتّـب . ولذلـك كـانَ والِداهُما سَعيدَيْنِ بسُلوكِ الطّفلَتَين ، لَولا صِفَـةٌ واحِـدَةً تَعيبهُما ، هى الكِبْرُ والاسْتِعلاءُ على النّاس .

وفى أحدِ الأيّام ، نَزلَتْ زينَةُ وفَـرَحُ لتَلعَبا فى حَديقَـةِ الـمَنزِلِ معَ صَديقاتِهِمـا ، واندَمَجـنَ جَميعًـا فى اللّعِـبِ والمَرَح ، وفيما هنّ يَلْعَبْن ، أقبلـتْ سَـيّدَةُ ابنَـةُ العَـمِّ أحمـد البَوّاب ، وطَلَبَتْ أن تَلعَبَ معَهُـن . فانسَـحَبتْ الطّفلَتـانِ زينَةُ وفَرَحُ فى هُدوء ، وصَعِدَتـا إلى شُـقّتِهن . فسَـألَتهُما أمُّهما : ماذا جـاءَ بكمـا ، ولِمـاذا تَركْتُمـا صَديقاتِكُمـا ؟ هـل تَعِبْتُمـا مـن اللّعِـب ، أو تَشـعُرانِ بِـالجوعِ فـتُريدانِ الغَداء ؟

ردَّتْ زينَـةُ فـى كِـبْرٍ واسْتِعلاء : لا هَـذا ولا ذاك ، ولَكِنَّ سَيِّدَةَ انْضَمَّت إلَينـا فـى اللّعِـب ، فَخشـينا علَـى مَلابِسِنا أن تتسِخ .

استاءَت أُمُّهما وقالَت : وما العَيبُ فى سَـيِّدَة ، ومـا عَلاقَتُهـا بمَلابسِـكُما ؟ فسَيِّدَةُ طِفلَـةٌ عَزيـزَةُ النّفْـس ، تَحرِصُ على نَظافَةِ مَلابسِها دائما .

قالتْ فَرَح : ولكِنّها فَقيرَة ، يَظهَرُ البُؤسُ عَلَيها .

غَضِبَتْ أُمُّها وقـالَت : الفَقـرُ لَيس عَيْبًـا يـا ابْنَتـى ، ولَيسَ مَعنَى أنّكِ أكثرُ مِنها مالا ، أنّكِ أَفضَلُ مِنها ؟

قالَتْ فَرَحُ غاضِبَة : كيفَ تَقولين يا أُمّى أَنّهـا أَفضَـلُ مِنّى ؟

قالَت أُمُّها : أَلَم تَسْمَعى حَديثَ النّبِىِّ صلّى اللّهُ عَليـهِ وسَلَّم ، الّذى يَقولُ فيه : (إنَّ اللّهَ لا يَنظُرُ إلى صُوَرِكُم

ولا إلَى أجْسادِكُم ، ولكن يَنظُرُ إلَى قُلوبِكُم) .

كمَا قـالَ كذَلِك : (يَجمَعُ اللّـهُ عـزَّ وجَـلَّ النّـاسَ لِلحِساب ، فَيَجيءُ فُقراءُ المُؤمِنـين ، يَزِفّـونَ كما يَـزِفُّ الحَمام ، فَيُقـالُ لهـم : قِفـوا لِلحِسـاب . فَيَقولـون : مـا كـانَ لنـا شَيءٌ نُحاسَبُ عَلَيـه ، فيَقـولُ اللّـه : صَـدَقَ عِبادى . فَيَدْخُلون الجَنّةَ قبلَ النّاس) .

لا تَتخَلّى زينَةُ عن تَكبُّرِها وتَقولُ مُستَنكِرَة : سَيِّدَةُ هذه تَدخُلُ الجَنّةَ قَبْلى ؟ يا لَلمَهزَلَة !

اشتَدَّ غَضبُ أُمِّها وقالَت : كفَى يا زينَـة ، فحَديثُكِ يَبعَـثُ علـى الاشْـمِئزاز . ألَمْ تَعلَمـى أنَّ أحَـدَ صَحابَـةِ الرَّسولِ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم ، وهـو سَعيدُ بـنُ عـامِرٍ كانتْ تَأْتيهِ الأَمْوال ، فيَتخَلّصُ مِنها بأَسْرعِ ما يُمكِـن ، لِيُحشَرَ معَ الفُقَراء ؟

قالتْ فَرَح : كيفَ يا أُمّى ؟ احْكى لَنا حِكايَتَه .

قالتْ أُمُّها : كانَ سَعيدُ بنُ عامِرٍ ـــ قبلَ إسْلامِه ـــ يَقِفُ مع الآلافِ الّذينَ تجمَّعوا ليُشاهِدوا مَظاهِرَ إعْدامِ الأَسيرِ خَبيبِ بْنِ عَدِىّ ، الّذى قاسَى من آلامِ التّعذيبِ ما لا يحتَمِلُه بَشَر . فقابَلَ ذلك بصُمودٍ وثَباتٍ يدُلاّنِ على إيمانٍ راسِخ ، وعَقيدَةٍ لا تتزَعْزَع . ورأى سَعيدُ بنُ عامِرٍ خَبيبًا وهو يُصَلّى رَكعَتَيْنِ لِلّهِ قبلَ مَوتِه ، ويَقولُ صامِدًا : « واللّهِ ما أُحِبُّ أن أكونَ آمِنًا فى أَهلى ووَلَدى ، وأنَّ مُحمَّدًا يوخَزُ بشَوْكة » .

ويُؤثّرُ المَشهَدُ فى الفَتَى اليافِع ، ليُطارِدَهُ فى النّومِ واليَقَظَة ، ويُفكّرُ فيهِ كَثيرا ، حتّى يَصِلَ أخيرًا إلى برِّ الأمان ، ويُعلِنَ إسْلامَه .

وهاجَرَ سعيدُ بنُ عامِرٍ إلى المَدينَة ، وشارَكَ فى غَزوَةِ خَيْبَر وما بَعدَها من غَزَوات .

وفى عَهدِ الخَليفَةِ عُمَرَ بنِ الخَطّاب ، أرسَلَه والِيًا علَى الشّام ، وكانَتِ الشّامُ غَنِيَّةً بالثّرواتِ والخَيْرات ، فيها الأَنهارُ الجارِيَة ، والمَزارِعُ الشّاسِعَة ، والخُضرَةُ الوارِفَة ، والتّجارَةُ الرّائِجَة .

قالت زينَةُ فى استِنْكار : والِيًا على كلِّ تلك النِّعَم وفَقير؟ أنا لا أكادُ أُصدِّق .

قالَتْ أُمُّها : نَعَم يا زينَةُ فَقير . اسْمَعى لِتَعْرِفى كيفَ كانتْ حَياتُه ، وماذا كانَ يَملِك .

حاوَلَ سَعيدُ بن عامرٍ أن يتملَّصَ ويَرفُضَ الوِلايَة ، وقالَ إنّها فِتنَةٌ تُلهيهِ عَنِ العِبادَة ، ولكنَّ الخَليفَةَ عُمَرَ رفض عُذرَه ، وقال : كيفَ تُريدونَنى أميرًا عَليكُم ، من غيرِ أن تُعاوِنونى على الإمارَة ؟

وقَبِلَ سَعيدٌ مُضْطَرًا ، واصْطَحَبَ معَهُ عَروسَهُ وكانتْ تَتمَتّعُ بجَمالٍ فَتّان . وأعْطاهُ الخَليفَةُ بَعضَ

الأَموالِ لِيَشتَرِيَ مِنها ما يَلزَمُهُما من أَثاثٍ ومَلابِس .

وفى الشّامِ تَقتَرِحُ عليه زَوجَتُه أن يَشتَرِيا ما يَلزَمُهُما من أثاثٍ ويدَّخرا الباقى . فيَعرِضُ سَعيدٌ عَليها أن يَشتَرِيا لَوازِمَهُما الضَّرورِيَّةَ فقط ، ويَستَثمِرا الباقى فى التّجارَة .

قالت زينة : آه ! ها هُوذا تَأَثَّر بالنِّعَمِ الّتى تُحيطُ به ، وفكَّر فى جَنْيِ المَكاسِب !

ابتَسمتْ أُمُّها وقالتْ : فلْنَر ! أخَذَ سَعيدٌ المَبلَغَ المُتَبقّى لِيَستَثمِرَهُ فى التّجارَة .

وكلّما سَألَتْه زَوجُهُ عنِ الأَمْوالِ والمَكاسِب ، طَمأَنَها قائِلاً لها : إنّها فى ازْدِياد . إلَى أن كانَ عِندَهُما فى أَحَدِ الأَيّامِ زائِرٌ قَريبٌ لَهُما ، يَعرِفُ حِكايَةَ الأَمْوال . وسَألَتْه الزَّوجَةُ عن حالِ التّجارَة ، فضَحِكَ الضَّيْفُ مِمّا أثارَ الشَّكَّ فى نَفْسِ الزَّوجَة ، وأصَرَّتْ أن تَعرِفَ الحَقيقَة . فأخبَرَها الضَّيفُ أنَّ سَعيدًا قد تَصدَّقَ بكُلِّ المالِ من أوّلِ يَوْم .

فغَضِبَتِ الزَّوجَة ، وبكَتْ على حالِها ، فلا هِيَ اشْترتْ بالمالِ ما تحتاجُ إلَيه ، ولا هِيَ ادَّخرَتْه لِينفَعَها .

وقالَ لها سَعيد : اعْلَمى يا زَوجَتى العَزيزَة ، أنَّ فى الجَنَّةِ من الحورِ العينِ والخَيْراتِ الحِسان ، ما لَو أطَلَّت واحِدَةٌ مِنهُنَّ على الأَرْض ، لأَضاءَتْها جَميعا ، فلن أُضحِّىَ بِهِنَّ من أجْلِك .

فسَكتَتْ زَوجُه ، وعَرفت أن لا مَفَرَّ لها من السَّيرِ معه فى طَريقِ الزُّهدِ والتَّقشُّف .

قالَتْ فَرَح : ولِماذا قالَ لها إنّه يُتاجِرُ بالمال ؟

قالَت أُمُّها : إنهُ تاجَرَ بالمالِ فِعْلا ، ولكنْ معَ اللّهِ تَعالى .

اذْكُرى الآيَةَ الكَريمَةَ الّتى يَقولُ اللّهُ فِيها : ﴿ مَثَلُ الّذينَ يُنفِقونَ أمْوالَهُم فى سَبيلِ اللّه ، كمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتت

سَبعَ سَنابِلَ فى كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّة ، واللَّهُ يُضاعِفُ لِمَنْ يَشاء ، واللّهُ واسِعٌ عَليم » .

* * *

وطلبَ الخَليفَةُ عُمرُ بنُ الخَطّابِ من بَعضِ رِجالِه ، أن يَكتُبوا له أسْماءَ الفُقَراءِ بالشّام ، ليُعْطِيَهم من بَيتِ المال . وعِندَما قَرأَ الخَليفَةُ اسْمَ سَعيدِ بنِ عامِرٍ ضِمْنَ أسْماءِ الفُقَراء ، سَأَلَ :

ــ ومن سَعيدُ بنُ عامِرٍ هَذا ؟

قالوا : أميرُنا .

فاسْتَغربَ الخَليفَةُ وقال : أميرُكُم فَقير ؟

قالوا : نَعم ، وواللّهِ إنّه لتَمُرُّ عَليهِ الأَيّامُ الطِّوال ، ولا يوقَدُ فى بَيتِهِ نار .

فبَكى الخَليفَةُ عُمَرُ على حالِ سَعيد ، وطلبَ أن

يُرسَلَ إليه أَلفُ دينار ، يَستَعينُ بِها على قَضاءِ حاجاتِه ، وإصْلاحِ حالِه .

فعِندما رأى سَعيدٌ الأَموالَ عِندَه ، ولْوَلَ وقال : « إنّا لِلّهِ وإنّا إلَيهِ راجِعون » .

فسَألْته زَوجُه : ماذا أَصابك ، أحَدَثَ ما يَضيرُ أَميرَ المُؤمِنين ؟ أحَدثَ مَكروهٌ لِلمُسلِمين ؟

فبادَرَها بقَولِه : دَخلتْ علَيَّ الدُّنيا لتُفسِدَ علَيَّ آخِرَتى ، وحَلَّتِ الفِتنَةُ الآنَ فى بَيْتى .

قالَت زينَة : وماذا كانَ يَقْصِد ؟

قالَت أُمُّها : لَقد خافَ سَعيدُ بنُ عامِرٍ ، أن تَشغَلَهُ مَفاتِنُ الدُّنيا ونَعيمُها ، عنِ الآخِرَةِ والاسْتِعدادِ لِيَومِ القِيامَة ، فكأنّما حلّت به مُصيبَة .

قالَتْ زينَة : مُصيبَة ! أأصْبَحَ المالُ مُصيبَة ؟

قالتْ أُمُّها : وسَرعانَ ما أخذَ سَعيدٌ الدَّنانير ، وفَرَّقَها على فُقَراءِ المُسلِمين .

قالَت فَرَح : ولَم يَترُكْ لنَفْسِهِ بَعضَها ؟

قالَتْ أُمُّها : ولا دِرهَمًا واحِدا .

* * *

وحـدَثَ أن زارَ الخَليفَـةُ عُمَـرُ بـنُ الخَطّـابِ الشّـام ، وسـأَلَ النّـاسَ عـن أَحْوالِهـم وأحْوالِ أَميرِهم معَهُـم . فأجْمَعوا كلُّهـم عَلَـى حُبِّهـم لسَعيدِ بـنِ عـامِر ، إلاّ أنَّ بَعضَ المُتَذَمِّرينَ شَكوا مِنهُ في أَرْبَعِ خِصال ، هي أنّه :

لا يَخرُجُ إلَينا حتّى يَتعالَى النّهار .

ولا يُجيبُ أحَدًا في اللّيْل .

ولَه في الشّهرِ يَومان لا يَخرُجُ فيهِما إلَينا فلا نَراه .

والأَخيرَةُ أنّهُ تَأخُذُه إغْماءَةٌ بينَ الحينِ والحين .

وطلبَ مِنه عُمَرُ بنُ الخَطّابِ أن يَردَّ على هذه الاتّهامات ، فردَّ عليْها بقوْله :

أمّا أنّه يَتأخّرُ في الخُروجِ إليهِم صَباحا ، فلأنّه لا خادِمَ له فكان يعاونُ أهلَ بيتِه في العَجينِ والخَبيز ، ثُمَّ يُصلّي الضُّحا ثمَّ يَخرُجُ إليهِم .

أمّا أنّه لا يُجيبُ أحدًا في اللّيل ، فذلك لأنّهُ خَصّ اللّيلَ لِلعِبادَةِ والتّضرُّعِ لِلّه .

أمّا قَولُهم إنّه لا يَخرُجُ إليهِمْ يومَيْن كلَّ شَهر ، فقدْ ردَّ عَلَى استِحياءِ أنه لا يَملِكُ إلاّ ثوبًا واحِدا ، فيَغسِلُهُ ويَنتَظِرُ حتّى يَجفَّ لِيخرُجَ إليهِم .

أمّا الإغْماءَة ، فبِسَبَبِ رُؤيَتِهِ مَشْهَدَ إعْدامِ خَبيبِ بن عَدِيّ ، وما لَقِيَه من تَعذيب ، فيَخافُ أن ينالَهُ عذابُ اللّه ، لأنه كانَ يَومَها مِن الكُفّار .

قالَت زينَة : ألِهَذهِ الدَّرجَةِ كانَ فَقيرا ؟

قالَت أُمُّها : ألم أَقُـل لـكِ يـا زينَـة ، أنّـه كـانَ دائمـا حَريصًا أن يُحشَرَ يومَ القِيامَةِ معَ الفُقَراء ؟

* * *

ونعـودُ لِلخَليفَـةِ عُمَـرَ بـنِ الخَطّـاب ، ونَـرَى فَرْحَتَـهُ وسَعادَتَه لتَوفيقِهِ فى اخْتِيارِ سَعيدِ بنِ عامِرِ ، والِيًـا على الشّام ، فقال :

ـ الحَمدُ لِلّهِ الّذي لم يُخيِّب فِرَاستى .

وبعثَ إلَيه بـألْفِ دينـارٍ أُخْرَى ، لِيَسـتَعينَ بهـا علـى قَضاءِ حاجاتِه . ففَرِحَت زَوجُ سَعيد ، وطلَبَتْ مِنه شِراءَ بَعضِ المُؤَن ، واسْتِئجارَ خادِمٍ لتُعاوِنَهم .

ولكنَّ سَعيدًا يَقولُ لَها : نَدفَعُ الألفَ دينـارٍ إلَى مـن يَأتينا بِها ، ونَحنُ أحوَجُ ما نَكونُ إلَيها .

فتَسأل : وما ذاك ؟

قال : نُقرِضُها لِلّهِ قَرضًا حَسَنا .

وكانَ مَصيرُ الألفِ دينارٍ كَمصيرِ ما قَبلَها ، ووُزِّعَت علَى اليَتامَى والأَرامِلِ والمُحتاجين .

قالَت فرح : إنّها قِصَّةُ رَجُلٍ يَكرَهُ المال ويُحِبُّ الفَقْر.

قالَت أُمُّها : كانَ يَقولُ دائِما : كانَ لى أصْحابٌ سَبَقونى إلى اللّه ، وما أُحِبُّ أن أنْحَرِفَ عنْ طَريقِهِم ، ولو كانتْ لِيَ الدُّنيا وما فيها .

* * *

وفى السَّنَةِ العِشرينَ من الهِجْرَة ، لقِيَ سَعيدٌ رَبَّه ، وهو لا يَملِكُ إلاّ قَلبًا يَنبِضُ بالإيمان ، وشَوْقًا لِلِقاءِ الرَّسولِ صلّى اللّهُ عَليهِ وسَلّم ، ولِقاءِ من سَبَقوه من الصَّحابَةِ فى جَنَّةِ الخُلدِ بإذْنِ اللّه .

قالتْ فَرَح : يا لَلزُّهدِ والوَرَعِ والبَساطَة !

قالتْ أُمُّها : والآنَ بعدَ أن سَـمِعْتُما قِصَّـةَ سَعيدِ بـنِ عامِرٍ ، أرجو أن تتغيَّرَ نظرَتُكُما إلى سَيِّدَة ، فالفَقْرُ كمـا رأَيتُمـا لا يَعيـبُ صاحِبَـه ، والأرْزاقُ بِيَـدِ اللّـهِ تعـالى ، يَـرزُقُ مـن يَشـاء ، ويَمنَـعُ عَمَّـن يَشـاء ، واسْـتِمرارُ الحالِ منَ المُحال ، فمَن يَدرى بما تَأتى بهِ الأَيّام ؟

قالَت زينة : آسِفَةٌ يا أُمّى ، وأَعْتَقِدُ أنّى كُنتُ مُخطِئَةً فى حُكمى علَى سَيِّدَة ، فهى كَما قُلتِ عَنها بِنتٌ نَظيفَة مُهذَّبَة .

قالَتْ فَرَح : هَيا بنا يا زينة ، لنَلعبَ معَ صَديقاتِنا فى الحديقة ، حتّى يَعودَ أبونا من عَمَلِه .